الثنائياتُ في خطبةِ الإمامِ عليٍّ عليه السلام (القاصعة)

Paired-Words in the Exquisite Sermon of Imam Ali (Peace be upon him)

أ. د. رياض شنته جبر

كلية التربية / جامعة ذي قار

Prof. Dr. Riyadh Shanta Jabir,

College of Education, University of Theqar

... ملخص البحث ...

ينطلق هذا البحث من فكرة مركزية هي أن الثنائيات ظاهرة كونية قبل أن تأتي في الفن والأدب، إذ ان العلاقة بين الخالق وخلقه علاقة ثنائية فضلاً عن ظواهر الكون الكبرى مثل الظلمة والنور، والليل والنهار، وفي مراحل خلق الإنسان في حياته الدنيا ثم حياته الآخرة بعد الموت، بل إن الحياة والموت يشكلان ثنائية ضدية بارزة، وهناك صور الصراع بين الانسان والشيطان أو بين بني البشر أنفسهم، منذ ان خلق الله آدم، أو بين الانسان والطبيعة... الخ، ولايقتصر الأمر على الثنائيات الضدية التي أشرنا إليها بل هناك ثنائيات تكاملية تقوم على الترادف والتوازن.

... Abstract ...

The current research paper comes into fore since the paired-words regarded as universe phenomenon before being tackled in art and literature; the relation between the creator and the created is in pairs, and it is more evident in the great universe phenomena; dark and light, night and day, life and hereafter. Yet life and death loom evidently contradicted, the conflict between man and devil or between the human beings from the fall of Adam, or between man and nature and so forth. Not only is it delimited to the contradicted pairs, but there are concomitant pairs stemming from equality and stability.

... المقدمة ...

١. إن أدب أمير المؤمنين **علي بن ابي طالب** عليه السلام في رسائله وخطبه وحكمه يضجُّ بالثنائيات الضدية والتكاملية، وقد وجد الباحث في خطبته (**القاصعة**) ثنائيات متنوعة أسهمت بشكل جلي في إيصال الرؤى إلى المتلقي عبر آلية الثنائيات التي تحرك سكون النص فتخلق موجات تشبه موجات الماء التي تتسع تدريجياً حتى تصل إلى جرف المتلقى وهذا بعض ما يحدثه تنافر الاضداد في فكر المتلقي.

٢. في نص الخطبة ثنائيات منها في الرؤى وقد خصص لها المبحث الاول، وهي ثنائيات موضوعية بعضها في حقل الثنائيات الضدية وتشكل نسبة كبيرة منها، وبعضها الآخر ثنائيات تكاملية تقوم على المماثلة الموضوعية ووحدة الرؤى.

٣. وهناك ثنائيات في الأداء وقد خصص لها المبحث الثاني ونقصد بها الثنائيات الفنية التي جاءت على نمطين منها ثنائيات ضدية ومنها تكاملية تخللت الثنائيات الموضوعية أو جاءت خارجها في مواضع أخرى من النص مثل السرد الذي تضمن تحدي المشركين **للرسول الكريم** صلى الله عليه وآله في المقطع الأخير.

٤. اعتمدت نسخة نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبدُه الجزء الثاني ص١٣٧-١٦٠.

٥. تضمن البحث خاتمة وقائمة هوامش ومصادر.

... المبحث الأول ...

ثنائيات الرؤى

وهي ثنائيات موضوعية وعليها ترتكز البنية الرئيسة في خطبة **الامام علي** (القاصعة)[١] والخطبة في الاصل ((تتضمن ذم إبليس على استكباره وتركه السجود **لآدم** عليه السلام، وأنه أول من أظهر العصبية [٢]، وتبِعَ الحميَّه [٣]، وتحذير الناس من سلوك طريقته))[٤].

في البدء نقول إننا لم نقف عند معنى مفردة: ثنائية، ومعنى مفردة: متضادة وذلك لأن الباحثين في هذا المجال سبقونا إلى ذلك[٥]، ودراسة الثنائيات في نص الخطبة منهج نقدي داخلي جديد يركز على أدبية النص وقراءته ((في نظامه المستقل وأسلوبه الخاص ونسيجه المتميز وقيمه الجمالية التي صدر عنها))[٦] وهناك من يقول: ((الحالتان المتضادتان إذا تتالتا أو اجتمعا معاً في نفس المدرك كان شعوره بهما أتم وأوضح))[٧] اننا الآن بصدد ثنائية ضدية في أكثر من رؤية أولها بين الخالق **الله** جلّ جلاله، ومخلوقه إبليس إذ يقول **الامام** عليه السلام ((الحمد لله الذي لبس العزَّ والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحرماً على غيره، واصطفاهما بجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده))[٨]

نلحظ في افتتاحية الخطبة هذه الثنائية الضدية التي نستطيع القول إنها ثنائية مركبّة حيث تتشاطرها الذات الالهية التي اختارت العزّ والكبرياء بقبالة خلقه

وعباده الذين ارتضت لهم الطاعة والتواضع، والمفارقة التي حملتها هذه الافتتاحية تتمثل باختيار ابليس الكبرياء والعزّ إدعاءً لنفسه من دون ان يكون قادراً على مواجهة صاحب الكبرياء والعظمة الحقيقية وكانت نتيجة هذا السلوك من لدن ابليس أن خاطبه **الله** سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٩] ان هذه الضدية بين الكبرياء والتواضع تتجسد في الحياة بين البشر من ذلك الخطاب وتأخذ اتجاهاً أخلاقيا حيث يكون التواضع من سجايا الرسل والأنبياء والأوصياء والصالحين والعلماء والبناة والعاملين، في حين يكون الكبر والعجب خيار الفراعنة والطغاة والظلمة على مر التاريخ، وهذا ينقلنا إلى التضاد بين النسق الحاضر والنسق الغائب في النص إذ ((لابدَّ من توافر التضاد ليتشكل النسق، ولكي يتشكل لابدّ أن ينحل، لتنشأ عبر التغاير (الحضور والغياب) بنية تقوم على ثنائية ضدية تنبع من التمايز بين عنصرين أساسيين))[١٠] **فالامام** يومئ إلى ماواجهه من العنت والتكبر والانكار من الآخر.

ومن هذه الثنائية الرئيسة ينتقل **الإمام** إلى ثنائية ضدية أخرى إذ يشير إلى قوله تعالى﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ ۞ فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾[١١] ثم يقول ((اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله، فعدو **الله** إمام المتعصبين، وسلف المتكبرين، الذي وضع أساس العصبيّة))[١٢] هنا نلحظ ثنائية ضدية اخرى في بنية الخطبة بين ابليس من جهة وآدم من جهة أخرى، إذ ان ابليس الذي استكبر ورفض ان يسجد **لآدم** إمتثالاً لأمر **الله** تعالى صيّره **الله** بارادته عدواً لدوداً لآدم وبنيه منذ أن خلق **الله** البريَّة الى يوم القيامة، ولكن هذه الكبرياء وهذا العجب والعصبية لم تغيّر من سُنة **الله** في خلقه، يقول الامام علي عليه السلام

((ألاترون كيف صغرّه الله بتكبره، ووضعه يترفعّه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعــدَّ له في الآخرة سعيراً))[١٣] **والامام** عليه السلام يحذر من الانقياد للشيطان ونزعاته ونفثاته ((فاحذروا عباد الله أن يعيكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه وأن يجلب عليكم بخيله ورَجله))[١٤]، ويقتبس من كلام الله جل شأنه على لسان الشيطان ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٥] فالثنائية الآن بين ابليس وأعوانه وجنوده من جهة وبين بني البشر من جهة أخرى فهو يقف متربصاً للايقاع بهم، كي يسيروا في طريقه، ويتخذوا مخلته في عصيان أوامر الله، ولكنَّ السؤال هو ما ذا يضمر **الامام** عليه السلام من خلال عرض هذه الثنائيات الضدية؟

موضوع التضاد

الثنائية الاول: الله جل شأنه × خَلقُه ⟵ الكبرياء والتواضع

الثنائية الثانية: الله جل شأنه × ابليس ⟵ عصيان أمر الله بالسجود لآدم

الثنائية الثالثة: ابليس × آدم ⟵ افتخاراً بالخلق وتعصباً للأصل

إن المضمر في كلام الله -كما نعتقد- هو مايجسّده ابليس في بني آدم بعد اغوائهم باستثناء من وصفهم الله بقوله (الاّ عبادك منهم المخلصين)[١٦]، لذلك يخاطب الامام عليه السلام متلقيّه ((فأطفئوا ما كمُن في قلوبكم من نيران المعصية، وأحقاد الجاهلية....، واعتمدوا وضع التذّلل على رؤوسكم، والقاء التعزّز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من اعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين عدوكم ابليس وجنوده))[١٧] إن **الامام** عليه السلام يكشف هذه النزعة الانسانية الحضارية التي تتجلى في اطفاء نيران العصبية وأحقاد الجاهلية، وهنا نستحضر ثنائية ألمحَ اليها الامام عليه السلام وهي

ماكان عليه العرب قبل انبلاج الاسلام وتحولهم من عقلية الشرك الى عقلية التوحيد، وهذه الثنائية زمنية إن صحَّ التعبير، فالشرك يورث الظلم والعدوان والتعصب والتكبر، في حين يورث التوحيد العدل والسلام والاخوة والمساواة والتواضع.

ثم يستعرض **الامام**عليه السلام ثنائية ضدية أخرى سببها ابليس وجنوده وهذه الثنائية بين الانسان وأخيه الانسان إذ يقول: ((ولاتكونوا كالمتكبر على ابن امه من غير ما فضلٍ جعله **الله** فيه سوى ما ألحقتِ العظمةُ بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحميَّة في قلبـه من نـار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر))[١٨]

إذ يوقع ابليس بين المرء وأخيه وبنيه فيكونان عدوّين بفعل الحسد والغضب اللذين يولدهما الشعور بالعظمة والحميّة، وهذه من وسائل ابليس وحبائله وشباكه.

ثم يعرض **الامام**عليه السلام ثنائية أخرى تمثل بنظرنا امتداداً لسابقتها إذ نجد أن الخطبة تتضمن وحدة موضوعية تتدرج من بدء الخلق واستمراره حتى يومنا هذا، بل تستشرف الغد فالثنائية الآن بين المؤمنين وأعدائهم، أصحاب البغي والمناصبة والمحاربة ((ألا وقد أمعنتم في البغي وأفسدتم في الأرض مصارحة ً لله بالمناصبة ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة))[١٩]، فأعداء **الله** هم أعداء المؤمنين في كبر الحميّة وفخر الجاهلية، ولكنَّ هؤلاء لم يقفوا للمؤمنين بالمناصبة والمحاربة من تلقاء أنفسهم بل طاعة لساداتهم وكبرائهم، وهل تتولد ثنائية أخرى بين **الامام علي**عليه السلام وسادات هؤلاء لذا يحذرهم **الامام** من طاعتهم ((فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم... ولاتطيعوا الادعياء الذين شربتم بصفوكم كَدَرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقّكم باطلهم))[٢٠].

وهـذه الثنائية مع أنها ثنائية ضدية تشكل مع سابقتها التي يمثل **الامام**

علي عليه السلام طرفها الاول، بينما يمثل الادعياء طرفها الثاني، أقوال تشكل مع الثنائية التي ثبّتها ثنائية تكاملية حيث يشكل **الامام علي** عليه السلام وقبله **النبي موسى** ووزيره وأخوه **هارون** عليه السلام نسقاً واحداً قوامه الزهد والتواضع، بينما يمثل الادعياء الذين ذكرهم **الامام علي** عليه السلام في النص السابق وفرعون نسقاً آخر قوامه الكبرياء والادعاء والعجب. يقول **الامام** عليه السلام ((ولقد دخلَ **موسى بن عمران** ومعه أخوه **هارون** عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهم العصي... فقال فرعون: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلاّ ألقي عليهما أساورةٌ من ذهب))[٢١]، ونستطيع القول إن هذه الثنائية يمكن أن نعدّها ثنائية تأريخية أو دينية مع ما فيها من ملامح السرد الذي يجنح إليه الامام لابقصد امتاع الجمهور بحكايات وقصص، وليس لغرض دعائي، بل بقصد التوجيه المعرفي والمصداقية ووضوح الهدف وغرضيته[٢٢]، ونلحظ بعد ذلك ثنائية ضدية مفترضة يفترضها **الامام** عليه السلام وهو يصف موقع بيت **الله** الحرام إذ يقول ((ثم جعله بأوعر بقاع الارض وأقل نتائق الارض مدراً، وأضيق بطون الاودية قُطراً بين جبالٍ خشنةٍ ورمالٍ دمثةٍ وعيون وشلة، وفرى منقطعة...))[٢٣] حتى قال: ((ولو أراد الله سبحانه ان يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار، وسهلٍ وقرارٍ، جم الاشجار، داني الثمار، مُلتفُّ البُنا، متصل القرى، بين بُرةٍ سمراء، روضة خضـــراء...))[٢٤]، فالتضاد هنا حاصل بين واقع إرادةُ **الله** وفرضَهُ بارادته المطلقة لكي يتحقق الثواب في أعلى درجاته للقاصدين الى بيته المحرم، وهم يقصدون هذا المكان الوعر، وقد جاء وصفه مطابقاً لما جاء في القرآن الكريم بالاجمال إذ يذكر القرآن الكريم على لسان **ابراهيم الخليل** عليه السلام ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ

وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٢٥]، ثم يفترض الامام عليه السلام بقبالة هذه الصورة الواقعية، أن الله سبحانه وتعالى كان من اليسير عليه أن يضع بيته الحرام في مكان آخر، في جنّات وأنهار وسهول واشجار... الخ وهنا يمكن أن نلفت النظر الى ان الامام عليه السلام لم يخرج عن الوحدة الموضوعية في خطبته من خلال هذه الثنائيات المتدرجة حيث يرمز المكان الوعر الى الزهد والتواضع والقناعة والتحمل وعسر الحال وهي سجايا الانبياء والرسل والأولياء والزهاد والمؤمنين بينما تمثل الجنان والسهول الخضر والروضات بذخ العيش وعطاء الدنيا وبهرجها الذي تنشغل به الفراعنة والحكام والاغنياء، فالطرف الاول من الثنائية يمثل الجزاء الاخروي وبقدر الجهود والمشقة يكون الاجر كبيراً وثميناً، بينما يمثل البذخ الدنيوي لهواً وانشغالاً عن النظر الى الاجر الأخروي.

ويمضي الامام عليه السلام في خطبته يحذر سامعيه من سلوك الاغنياء فيعقد ثنائية ضدية بين حالهم وحال من يخاطبهم قائلاً ((وأما الاغنياء من مُترفةِ الامم فتعصبوا لآثار مواقع النعم، فقالوا: نحن اكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين)) فان كان لابدّ من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الافعال، ومحاسن الامور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب وبعاسيب القبائل))[٢٦] وقد اقتبس الامام عليه السلام من كلام الله على لسان حال الاغنياء[٢٧]، وقد تعصبوا لآثار مواقع النعم والاموال والاولاد في حين يرى الامام أن التعصب ينبغي أن يكون لمكارم الاخلاق، وهو يذكر بالقيم العربية الاصيلة التي لم يتنكر لها الاسلام، والامام عليه السلام يقف موقفاً معادياً من سلوك الطواغيت والاغنياء المفتخرين بأموالهم وأولادهم.

ومن باب أخذ العبرة يذكر الامام عليه السلام ثنائية تاريخية تظهر تبدل أحوال المؤمنين

من الامم الماضية ((وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم... الم يكونوا اثقل الخلائق اعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً، اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب))[٢٨] والثنائية تتحقق حينما يصور الامام عليه السلام انقلاب حالهم قائلاً ((حتى أذا رأى اللهُ جَدَّ الصبر منهم على الاذى في محبّته، والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً، فأيد لهم العزَّ مكان الذلِّ، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً وأئمةً اعلاماً))[٢٩] الثنائية تحققت في حال القوم مع صبرهم واحتمالهم الأذى فتغيرت حالهم حتى صاروا حكاماً بعد أن كانوا محكومين، ويقول في ثنائية تأريخية تتكامل مع سابقتها: ((فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والاهواء متفقة، والقلوب معتدلة، والايدي مترادفة والسيوف متناصرة... ألم يكونوا أرباباً في أقطار الارضين وملوكاً على رقاب العالمين))[٣٠]، وتتشكل الثنائية حينما يقول الامام عليه السلام ((فانظروا الى ماصاروا اليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة، وتشتت الالفة، واختلفت الكلمة والافئدة، وتشعبوا مختلفين وتفرقوا متحازبين، قدخلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته))[٣١]، هذه الثنائية ضدية واقعية تاريخية، تمثل صورة القوم حال وحدتهم واجتماعهم، وصورتهم حال تفرقهم وتشتتهم، وكل ثنائية موضوعية تمثل فقرة تضم ثنائيات تكاملية بصورة أفقية، ولكنها تشكل ثنائيات ضدية أدائية بصورة عمودية بين الاولى والثانية.

وفي ثنائية تاريخية يذكر الامام علي عليه السلام أحوال العرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وآله قائلاً ((تأملوا امرهم في حال تشتتهم وتفرقهم ليالي كانت الاكاسرة والقياصرة أرباباً لهم... فتركوهم عالةً، مساكين أخوان دَبر ووبر، أذل الامم داراً...))[٣٢]

وهذه وثيقة تأريخية تصف لنا حال العرب قبل الاسلام وخضوعهم لسيطرة الدول الاجنبية وأحوالهم المضطربة فيها الفقر والذل والفرقة والجهل وبقبالة هذا الحال يذكر حالهم بعد بعثة النبي محمدﷺ ((كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسال لهم جداول نعيمها فهم حكام على العالمين.. يملكون الامور على من كان يملكها عليهم))[٣٣].

ويختتم الامـام خطبته بمقطع سردي طويل نسبيا يتحدث فيه اولاً عن خصوصية تجاوزت القرابة النسَبيّة الى القرابة الرسالية وهذا النص يمثل دعامة من دعامات خطابه السياسي باثبات اسبقيته في الايمان[٣٤]، فيقول.. ((وقد علمتم موضعي من رسول اللهﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة وضعني في حجرة وانا ولد، يضمني الى صدره، ويكنفني الى فراشه...))[٣٥]

اما الجزء الثاني من المقطع السردي فقد تضمن ثنائية ضدية طرفاها النبي محمدﷺ من جهة والمشركون المشككون بنبوّته وبعثته من جهة أخرى في قصة تتجلى فيها الذات الالهية لتمنح رسول الله إعجازاً في سرد حكائي تأريخي[٣٦]، حيث يجتمع السرد والزمان والمكان والحوار الذي يؤطر السرد.

... المبحث الثاني...
الثنائيات في الأداء

ونقصد هنا تلك الثنائيات الضدية أو التكاملية التي تتخلل فقرات الخطبة وتشكل بنياتها الجزئية، وهي كثيرة في نص الخطبة وقد آثرنا أن نختار منها مايؤكد هذه الظاهرة الفنية وأبرز صور هذه الثنائيات الضدية صور الطباق بمعنى انها ثنائيات بلاغية يقول عبدالقاهر الجرجاني: ((وأما التطبيق فأمره أبين، وكونه معنوياً أجلى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضدّه))[١]

يقول الامام عن ابليس ((ألاترون كيف صغّره الله بتكبّره، ووضعه بترفّعه))[٢].

فصيرورة الصغر بعد الكبر، وصيرورة الضعة بعد الرفعة تجسد هذا التضاد التي صار عليها حال ابليس بعد عصيانه امر الله تعالى بالسجود **لآدم** عليه السلام إذ لما ترفَّع وتكبّر على آدم صغّره الله ووضعه بارادته، وهاتان الثنائيتان متكاملتان في الوقت نفسه، لأن صغَّره ترادف وضعه، وتكبرّه ترادف ترفعَّه في الخط العام للدلالة فضلا عن توازن الثنائيات في التركيب.

ويقول الامام عليه السلام في موضع آخر ومازال الحديث عن ابليس: ((وادّرع لباسَ التعزز، وخلع قناع التذلل))[٣] وهي ثنائية ضدية برز فيها فعلا: ادّرع وخلع بدلالتهما الضدية، والاسمان: التعزّز والتذلل بدلالتهما الضدية أيضاً مع هذا

التوازن في التركيب النحوي الذي يجعل المتلقي يعيش مع ايقاع التوازن الذي يبرز الاحساس بالتضاد.

ويقول في موضع آخر: ((ماكان الله سبحانه ليُدخل الجنة بشراً بامرٍ اخرج به منها ملكاً))[٤] فالثنائية الضدية بين يدخل وأخرج مع تباين زمن الفعلين، ثم بين الاسمين بشراً ومَلكاً، وهي أيضاً ثنائية مركبة وهومايسميه القدامى مقابلة، ولاشك ان التسمية غير دقيقة الاّ إذا قصد بها مقابلة التضاد؛ لأن الدكتور أحمد مطلوب اشكل على استخدام مصطلح طباق أو مطابقة ورأى ان مصطلح ((التضاد)) أقرب الى الدلالة على هذا الفن، لأن التضاد يدل على الخلاف[٥]، ونحن نلحظ هنا أن الامام علي عليه السلام، لاتبرز لديه القصدية في الصياغة، بل لانجد تكلفاً أو تعقيداًأو غموضاً وهذا متأت من البديهة والقدرة، ولعل هذا الذي قصده الجاحظ حينما قال ((ومدار اللائمة، ومستقر المذمّة، حيث رأيت بلاغةً يخالطها التكلف وبياناً يمازجه التزيّد))[٦].

ويقول الامام عليه السلام في موضع آخر يشير فيه الى قدرة الباري عزّ وجل ((إن حكمه في اهل السماء وأهل الارض لواحد))[٧].

ومع وجود التضاد بين أهل السماء وأهل الأرض بدلالة اختلاف طبيعة سكانها فالأولى -السماء- موطن الملائكة، والثانية -الارض- موطن البشر، الاّ ان الثنائية تومىء الى شمول حكم لله وقدرته التي تطال اهل السماء كما تطال اهل الارض إن **الامام** عليه السلام هنا لايبتغي هنا رسم صورتين متضادتين بل يجمع بينهما. وفي هذا السياق يتضمن الاداء ثنائيات تكاملية تعزز الدلالة وتؤكد المعنى وتعمقه في ذهن المتلقي يقول ((ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الابصار ضياؤه، ويبهر العقول رواؤه... ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون اصله تمييزاً

بالاختبار لهم ونفياً للاستكبار عنهم، وابعاداً للخيلاء منهم))[٨] فالصورة الاولى (يخطف الابصار ضياؤه) على ما فيها من المجاز أو الانزياح تعززت وتأكدت بقوله ((يبهر العقول رواؤه))، مع تأكيد قدرة **الامام** عليه السلام في استحضار مايعزّز صوره ويؤكد معانيه ويعمقها.

والصورة الثانية التي يستعرض فيها علة الابتلاء التي يتخذها **الله** لاختبار عباده مع جهلهم بها، وغاية ذلك تصوير عجزهم إزاء هذا الابتلاء فيذهب عنهم الاستكبار ويبتعد منهم الخيلاء، وقد عزز التركيب الثاني (ابعاداً...) ماجاء في التركيب الاول (نفياً...) وتكامل معه.

ويقول الامام عليه السلام في موضع آخر من خطبته: ((فنجمت الحال من السر الخفي الى الامر الجلي))[٩]، وهذه ثنائية ضدية حملت سمة دلالية أخرى وهي سمة التحويلية مع الموزانة التركيبية.

ويلحظ الناظر في الخطبة ثنائيات تكاملية مثال قوله عليه السلام في تصوير عمل ابليس: ((ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلَبَ بخيله عليكم، وقصد برَجله سبيلكم))[١٠]، فهو يسترسل في وصف هذه الحرب التي يشنها ابليس وجنوده على بني آدم، وهو يوازن بين جمله مع تماثلها في التركيب وفي تأكيدها الدلاله وإشباعها المعنى:

وقع في حسبكم ← ودفع في نسبكم

أجلب بخيله عليكم ← قصد برَجله سبيلكم

ومثل ذلك في قوله:

((في حومة ذل، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاء))[١١] فالحومة

والحلقة والعرصة والجولة، تقترب في الدلالة المكانية، والذل والضيق والموت والبلاء، تقترب في دلالة الانكسار والانحسار، وهذا التكامل الجزئي أي الجزء الاول من التركيب والجزء الثاني منه جلّى الدلالة التي يقصدها الامامعليه السلام في تصوير حال بني آدم بعد هجمات ابليس واغوائه لهم.

ويقولعليه السلام ((فانما تلك الحميّة تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته))[١٢].

فهذه العلل التي توجد الحميـة في المسلـم هي من أفعال الشيطان وهي (الخطرات ونخوات والنزعات والنفثات) وقد تكون دلالتها اللغوية الدقيقة متباينة الا أن تشترك في دلالة عامة تجسد ألاعيب الشيطان وتفننّه في الاغواء والايقاع بالمسلم.

ومن الجلي الواضح في أسلوب الثنائيات التكاملية قوله في خدع الشيطان: ((فانه مَلاقِحُ الشنآن، ومنافخُ الشيطان التي خدع بها الامم الماضية، والقرون الخالية))[١٣].

وقد جعل قوله القرون الخالية دالاً على الزمن الذي عاشت فيه تلك الامم الماضية فتقاربت الدلالة وتدانت لكي يتحقق له السجع التام في الايقاع والفاصلة.

ومثله ((ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم))[١٤] فقد قارب بين تكبروا وترفعوا في الدلالة حتى شكلاّ ثنائية تكاملية تعزز المعنى وتؤكده ومثل هذا كثير في بنية الخطبة إذ يقول مثلاً في الأنبياء والأولياء: ((وقد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف))[١٥] فالافعال: اختبرهم، وابتلاهم، وامتحنهم)) متقاربة جداً في الدلالة

وقد نوّع **الامام** عليه السلام فيها إبعاداً للتكرار الممل والرتابة.

وهكذا يمكن القول إن **الامام** عليه السلام زيّن نصّه بألوان من الثنائيات الضدية والتكاملية لكي يوصل المتلقي الى أقصى مدى من القناعة والقبول والتفاعل مع الأفكار والرؤى التي يذكرها إذ كانت هذه الثنائيات هي أداته ووسيلته فضلاً عن سمات النص الجمالية الأخرى التي لم نعرض لها خوفاً من الابتعاد منهجياً عن حدود البحث من أمثال إيقاع فواصل الجمل وجمعه بين السجع والأزدواج والارسال ومن أمثال الانزياحات البيانية في المجاز والتشبيه والاستعارة.

... الخاتمة ...

إن الثنائيات الضدية والتكاملية في خطبة **الامام علي**عليه السلام، القاصعة تشكل ظاهرة بارزة، ولانستطيع أن نجزم بأنها في خطبه ورسائله كلها الامر يحتاج الى استقراء وتحليل كما وقفنا عند خطبته القاصعة وقد كشفت الدراسة عن جماليات هذه الظاهرة وتنوعها بين ثنائيات موضوعية في الرؤى التي توزعت هي الأخرى فكان منها ثنائيات تأريخية وأخرى افتراضية أو سردية وبين ثنائيات أدائية تخللت الثنائيات الموضوعية لكي تزين النص وتعمقه وتزيد من تكامله مع وسائل الفن الأدبي الأخرى.

... هوامش المبحث الاول ...

١) القاصعة: من قصع فلان فلانا: أي حقره... أو من قصع الماءُ عطشه إذا أزاله لأن سامعها لو كان متكبراً ذهب تاثيرها بكبره كما يذهب الماء بالعطش.

٢) الاعتزاز بالعصبة، وهي قوم الرجل الذين يدافعون عنه.

٣) الحمى: ماحميته من وصول الاخر ين.

٤) نهج البلاغة ج ٢ ص١٣٧.

٥) الثنائيات المتضادة في شعر الصعاليك: ص٦، ص١٣.

٦) تحليل النصوص الادبية: ص٨.

٧) الثنائيات الضدية: ص٥.

٨) نهج البلاغة، ج٢: ص١٣٧.

٩) سورة الاعراف، الاية: ١٨.

١٠) الثنائيات الضدية: ص٥.

١١) سورة ص، الآية: ٧١.

١٢) نهج البلاغة، ج٢: ص١٣٨.

١٣) م. ن: ص١٣٨.

١٤) م. ن: ص١٣٩.

١٥) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

١٦) سورة الحجر، الآية: ٤٠.

١٧) نهج البلاغة، ج٢: ص١٤١.

١٨) م. ن: ١٤١.

١٩) م. ن: ١٤٢.

٢٠) م. ن: ١٤٢-١٤٣.

٢١) م. ن: ١٤٣-١٤٥.

٢٢) ينظر: الخطاب في نهج البلاغة: ص٤٧ ومابعدها.

٢٣) نهج البلاغة، ج٢: ص١٤٦، نتائق البقاع المرتفعة، مدراً: لاينبت فيها الا القليل، دمثة: يصعب السير فيها، وشلة: قليلة الماء

٢٤) م.ن: ص١٤٧-١٤٨، القرار: المطمئن من الارض، ملتف البُنا: كثير العمران، البُرّة: الحنطة، السمراء: أجودها.

٢٥) سورة ابراهيم، الآية: ٣٧.

٢٦) نهج البلاغة، ج٢: ص١٥٠.

٢٧) سورة سبأ، الآية: ٣٥.

٢٨) نهج البلاغة، ج٢، ص١٥١.

٢٩) م. ن: ص١٥٢.

٣٠) م. ن: ص١٥٢، الأملاء: القوم والجماعة.

٣١) م. ن: ص١٥٢.

٣٢) م. ن: ص١٥٣، الدبر: القرحة في ظهر الدابة، الوبر: شعر الجمال والمراد انهم رعاة.

٣٣) م. ن: ص١٥٤.

٣٤) الخطاب في نهج البلاغة: ص١٦٠.

٣٥) نهج البلاغة، ج٢: ١٥٧.

٣٦) الخطاب في نهج البلاغة: ص٧٩.

... هوامش المبحث الثاني ...

١) اسرار البلاغة: ص٢٠.
٢) نهج البلاغة، ج٢: ص١٣٨.
٣) م. ن: ص١٣٨.
٤) م. ن: ص١٣٩.
٥) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، ج٢.
٦) البيان والتبيين، ج١: ص١٥-١٦.
٧) نهج البلاغة، ج٢: ص١٣٩.
٨) م. ن: ١٣٨.
٩) م. ن: ١٤٠.
١٠) م. ن: ١٤٠-١٤١.
١١) م.ن: ١٤١.
١٢) م.ن: ١٤١.
١٣) م.ن: ١٤٢.
١٤) م. ن: ١٤٢.
١٥) م. ن: ١٤٤.

... المصادر والمراجع ...

١) القران الكريم

٢) أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني ت ٤٧١هـ، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّه، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٣) البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن الجاحظ ت ٢٥٥هـ وضع حواشيه: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية-بيروت ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٤) تحليل النصوص الأدبية، قراءة نقدية في السرد والشعر، د. عبدالله ابراهيم وصالح هويدي، دار الكتاب الجديد (د. ت).

٥) الثنائيات الضدية، دراسات في الشعر العربي القديم، الدكتورة: سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة -دمشق- ٢٠٠٩٨.

٦) الثنائيات المتضادة في شعر الصعاليك والفتاك الى نهاية العصر الأموي، أطروحة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٧) الخطاب في نهج البلاغة، د. حسين العمري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م.

٨) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. احمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٦م.

٩) نهج البلاغة (ماختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام)، شرح الأستاذ الامام محمد عبده، دار الكتب العلمية، بغداد (د. ت).